ضياء الشرقاوي

رحلة في قطار كل يوم

قال : «نحن نريدك» .

قالت : «نحن نريدك» .

ولم املك ان ابتسم لهذه الارادة . اذاً ساقطع رحلة طويلة من اجلكما . وارتطمت يداي بجسدي فشعرت بسعادة غريبة . وعاودت تحريك يدي وقدمي ورأسي كأني اتأكد من انني لست مقيداً ، لست مغلولا . هذا زيف . اني ابحث عن القيود فعلاً، عن الاغلال. وامتلأت بالضيق والغيظ . الامر لا يحتاج الى كبير معرفة . كل اغلالي هي ارادتها . وشعر رأسي خفيف مبلل . وشققت طريقي مغلق العينين . وانزلقت مضغوطاً من باب المحطة ، مضغوطاً مقيداً . ولم تكد قدماي تلمسان الارض حتى انفجرت صرخة من فمي ، صرخة حادة انفجر بها كل كياني . فقد شعرت اني احمل اوزاراً مخيفة ، وكل شيء حولي - مالق بشبكة كثيفة من ظلام ، ظلام لا ادري هل يتكاثف ام يتلاشى . وامتلأ رأسي بضجيج ثقيل لا يتوقف . ولمحت بمشقة انسانين يندفعان نحوي باخلاص ويدفعانني الى القطار دفعاً وهما يقولان كأنهما فرد واحد: «هذا هو القطار» . واحسست بحقيبة ثقيلة يستقر مقبضها في يدي . وانطلق القطار . ووجدت نفسي واقفاً في ركن ، احملق باصرار هنا وهناك ولا اتبين الا اشياء قليلة . ولكني اسمع هذا الضجيج الثقيل المتواصل . وانفلتت حفنة رطبة من الهواء وصكتني . وجذبت انفاساً طويلة ، ووقفت خاملاً غريباً ، وظللت اتأرجح بين دفعات الواقفين حولي .

وقلت : «نريد النور» .

فسمعت الذين حولي يزومون ويهمهمون . ثم لاذوا بالصمت وعادوا يزومون . وردد واحد ورائي : «النور» .

وضحك البعض سخرية وآخرون في غيظ . وصرخ احدهم نحوي : « النبي . النبي » .

وارتفع ازيز عجلات القطار وابتلع اللغط . وبدا كأنه يردد : «النبي . النبي» .

وانزلقت من بينهم. اريد ان اذهب بعيداً. والحقيبة تزداد ثقلاً في يدي، ثقلاً شديداً. وحاولت ان اسأل نفسي : «لماذا اعطياني اياها ؟» وارتطمت باحد المسافرين فصرخ قائلاً: «هيه ايها المعتوه» . وانحنيت فوقه وهمست : «معذرة» . ووقفت الى جانبه . وكان يتأوه من حين لآخر، كأنه يتأوه في صدري ويملأ قلبي بآلامه . وقلت له : «الدنيا ظلام. نريد النور» . وانقبضت . لقد تضخم صوتي بدرجة مخيفة في جنبات القطار ، رغم اني همست . وصرخ الناس: «النبي . النبي» . وعاد التضاغط يؤلم جسدي بشدة . وشعرت بهم يبحثون عني. وامسكوا بي. وقال احدهم : «النبي». ولم ادر بماذا اجيبه . وابتسمت. وتكاثرت الايدي من حولي وامتدت حول عنقي . وسألت بجزع : «ماذا تريدون ايها السادة ؟ » ورددت عجلات القطار : «النبي . النبي».

تركتهم يأخذونني حيث يريدون . وافواههم تحولت الى ينابيع الغضب .

وسألت : «اين النور ؟ انني اتألم» .

ودفعوا بي دفعة قوية الى غرفة اشد ظلاماً. وسمعت صوت الباب يغلق والمفتاح يدار وجدران الغرفة تضغط عليّ . وظللت حاملاً الحقيبة التي تتثاقل . لم اتألم كثيراً لوحدتي . استطيع ان اسمع ضجيجهم وضجيج عجلات القطار بوضوح . ان كياني ليزداد امتلاء بهم وكأنهم ينزلقون الى داخلي . وتحسست شعري الذي طال وغزر واخفى اذني تحته . ودعكت عينيّ بشدة، لا ادري هل انا مفتحها ام مغمضهما. وارتفع صرير المفتاح ودفعت ايدي كثيرة الباب وجذبتني . اصابع قوية تلتف حول عنقي تريد خنقي . ويطلبون مني المزيد في الاسراع ولكن الحقيبة ثقيلة . والانفاس الباردة تملأ كل مكان .

«ايها النبي . دنت ساعة الحساب» . «القوه من القطار». «ايها النبي . دنت الساعة» .

جذبت انفاسي واخذت افكر . والناس من حولي يهمهمون في غضب . كأني في غابة مليئة بالوحوش المخيفة التي تريد لحمي لتتغذى به . شعرت نحوهم بتعاطف قوي .

وسألني الرجل الذي لا اراه : «هل تعتقد ان وجودك ضرورة كبيرة ؟ »

وحينما لم اجد اجابة اقولها له صرخ في وجهي : «أجب ايها النبي» .

وحينما لم اجب ، صاح : «مذنب» .

فصاح الجميع وراءه : «مذنب» . «القوه خارج القطار» . «مذنب . مذنب» .

واعادوني الى الغرفة الضيقة . وظللت واقفاً مكاني . ومن خلال كوة تطل الى خارج القطار ظللت انظر، اتأمل. بقيت هكذا مدة هائلة وامتدت اصابع شعري الى كل مكان.

بعضها فوق عيني : اهتززت من الاعماق ، لقد صار شعري في بياض النور . وشعرت كأنه يضيء غرفتي . واصطك الباب بشدة مرة اخرى . وامتدت الايدي تقتلعني من مكاني . وصرخ احدهم : «دنت ساعتك» . وهتف الرجل الذي لا اراه : «انك واهم . انت لا تعرف الحاجات البشرية» . وهتف الناس : «اننا نتهمك» .

وسألت : «بماذا ايها الطيبون ؟»

قال الرجل الذي لا اراه : « تهمتان : الاولى انك تريد وضع الاغلال في ايديهم ، والثانية انك انفقت شطراً طويلاً في التأمل خلال الكوة التي تفتح الى خارج القطار » .

وصمت لحظة . ثم واصل : « كان الاولى بك ان تطيل التأمل من الكوة التي تفتح الى داخل القطار . الى الناس . الى الحياة » .

وعندما صرخ الناس : « النبي . النبي » ، ادركت ان هذه رنة اتهام .

وصاح الرجل : « مدة اطول في السجن » .

لم اتعود الدفاع . لقد تعودوا الاتهام . وحينما القيت في سجني صحت بهم : « ولكنكم لا تستطيعون اغلاق الكوة التي تنظر الى خارج القطار . انها الطريق الى خلاصكم . ابحث عن النور من اجلكم » .

فهتف كل شيء : « شيطان » .

وحينما اغلق الباب شعرت بانسان معي في الغرفة . وسألت بخوف : « من ؟ »

فهمست : « اوه . معبودي . حياتي . فارسي » .

« يا للآلهة ! »

« وجودي . كل آمالي . احبك » .

ولم اجد شيئاً اقوله لها . وانضغطت انفاسي لوجودها . وصرخت : «ايتها الحيوانة» .

وهمست : « ان لك انفاً رائعاً » .

« ابتعدي ! »

كانت تلتصق بي مثل حيوانة جائعة مخيفة . ودعوتها : « هيا نتأمل خارج الكوة » .

فعادت تقول : « ان لك انفاً رائعاً » .

ولم اعد استطيع الصمود الى كوتي بسببها . انها تزنقني زنقاً شديداً . لا استطيع معها حراكا . وتفجرت مني دناءات ارضية كثيرة . وقلت ساخطاً : «ايتها الافعى . كفى» .

فهمست : « ان لك انفاً رائعاً » .

وصمت. كان عليّ ان افكر في اشياء كثيرة. وحانت مني التفاتة الى شعري فانزعجت: لقد عاد مظلماً ·

قالت لي : « انك تبكي » .

« حقاً . ان رحلتي شديدة الصعوبة » .

« فلتصعد الى الكوة الاخرى . تأمل الناس » .

كانت الكوة الثانية اوطأ . واخذت اتأملهم طويلاً . ووجدت نفسي اتثاقل نحو ارض الغرفة . وقلت متبرماً لها : « كأنني احمل كل آثامهم » .

« لماذا ؟ »

« هكذا . لا ادري لماذا اجد نفسي احمل كل آثامهم . خلقت طبيعتي هكذا » .

« ان لك انفاً رائعاً » .

« لماذا اردتني التأمل من الكوة التي تطل عليهم ؟ »

« كي تفهمهم » .

« مملوئين بالخطايا » .

« وكي تفعل شيئاً من اجلهم » .

« انك اغلال ارضية . انك شيطان » .

« ان لك انفاً رائعاً » .

«اريد ان اخرج» .

« حسناً . ستخرج» .

واخذت تستميل الحارس بوسائلها . وأغمضت عيني بشدة حتى لا ارى ماذا تفعل . وهمست لي : «الباب مفتوح» .

وانفلت خارجاً كالرياح . وشعرت بها تتبعني. ولكني ابتعدت عنها . وسمعت اناساً من حولي يصيحون : «ذهب النبي . ذهب النبي. انطلق من الكوة. شيطان . شيطان».

وتوقف القطار في محطة . والقيت نظرة . احساس غامض انها المحطة التي اريد الوصول اليها : وانزلقت من القطار وظللت سائراً . اتحسس طريقي بصعوبة . ما زالت الدنيا عالقة في شبكة من الظلام ، لا ادري هل يتكاثف ام يخف ؟ وانفلت من طريق الى طريق . نعم . اني اعرف طريقي تماماً الى الناس الذين اذهب اليهم . وتأملت البيت . هو . انه البيت . لعله البيت . وعدت الى تأمله . وصعدت الدرج . واخذت اتفحص

الابواب . هذا الباب . نعم . انه بابهم . ودققتـه . وسمعت من ورائه حركـة ثقيلة . وانفتح الباب . وحملقت فيهم بأسى ، بألم . ليسوا هم . ليسوا هم . وكأن اشيـاء كثيرة تنهار في داخلي . واخذوا يتأملونني بدهشة . وانهرت تمامـاً وسقطت ارضـاً ويدي ما زالت قابضة على الحقيبة. ليسوا هم . اخطأت الهدف. وكنت احس بصعوبة بما يفعلونه. ووضعوني فوق مائدة . كانوا يلغطون بدهشة عني . وسأل احدهم : « ماذا كان يريد؟»

«لا ندري». «لا يبدو انه من هنا » . «يبدو انه غريب». «يبدو انه اخطأ هدفه».

فقال آخر محتجاً : «ولكن كل شيء معه يثبت ان هنا مقصده».

« حقاً . حقاً » . «اذاً ليس هذا خطأ».

واردت ان اقول لهم : «ان وجودي كان خطأ» .

وبي خوف من ان يقولوا « النبي. النبي » ، ويحاكموني ويسجنوني. خوف هائل . لا استطيع الحركة او الكلام . كان كل شيء فيّ يخمد تدريجياً .

«هل انتهى ؟ »

«انه يموت . الينا بقسيس» .

«فلنزع عقيدته اولا . ابحثوا عنها في هذه الحقيبة التي معه» .

واحسست بهم يفتحون الحقيبة . ثم صاحوا في دهشة: «انها فارغة. ليس فيها شيء». واصبت بالدهشة ، بالذهول . كيف تكون حقيبتي فارغة ؟ لقد كانت ثقيلة . يا الهي ! لم اتنبه لوجود هذه الحقيبة الا الآن . وجودها الحقيقي . كنت احس بهـا فقط . قال احدهم : «ماذا سنفعل له ؟»

« لا ادري » . « انه ينتهي » . « لا ندري ماذا نفعل » .

وبعد فترة صمت قال واحد : « فكرة رائعة . للمجد ، للسماء . ليس هناك افضل من ان يأتي جميع ممثلي السماء . شيخ وقسيس وكاهن » .

ولكن كيف كان الهدف خطأ؟ ما زال الشعور بالخوف من ان يصيحوا «النبي. النبي» مترسباً في اعماقي . وشعرت بالماء المقدس ينثر فوق جسدي ، والكاهن يفعـل شيئاً ما ، وصلاة الشيخ تتصاعد الى اذني . واردت ان اقول لهم : « لا تنسوا ان تضعوا قطعـة من الذهب تحت لساني كي ارشو بها النوتي الذي سيعبر بي نهر الاساطير الى الجحيم » .

ولكني لم استطع. واردت ان افهم القضية بدقة. ولكن تبين لي ان الوقت ليس طويلاً.

«القطعة الذهبية يا سادتي . القطعة الذهبية لا تنسوها . ضعوها تحت لساني» .